

فن الحياة

يعيش الحيوان على المستوى البيولوجى : يأكل ويشرب ويتناسل . ولكننا نحن البشر نعيش على المستوى المدنى الفنى الثقافى . وقد لا يصدق هذا على جميع البشر ، أو بتعبير أصح ، قد لا يصدق هذا القول من حيث الدرجة التى يبلغها البشر فى المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى فى الأمة المتقدمة . فاننا مازلنا نجد الطبقات الفقيرة فى مصر والهند تعيش على المستوى البيولوجى . بل الحال كذلك أيضاً فى الطبقات الفقيرة فى أمم أوروبا الجنوبية حيث يقنع أفرادها بالحياة السلبية أى باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعاً لا يلتذون الحياة وإنما يكابدونها

ولكن جميع الأمم المتقدمة تحوى طبقات من الشعب تعيش الحياة الإيجابية إذ هى قد إطمأنت من ناحيتى الجوع والمرض بل هى قد استبعدت الموت إلى ما بعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهى تجد فى كفاية العيش ما يتيح لها الاستمتاع الروحى والمادى . وهذه الطبقات تمثل فى عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الأفراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفنى الكمال لأن الضروريات تتوافر إلى الحد الذى

لا يحسب لها حساب ولا تكون سبباً للهموم والاهتمامات .
وايس هذا العصر بعيداً . بل هو أقرب إلينا مما نتخيل .

والانسان في كفاحه الاجتماعي يشهد الضروريات أولاً
حتى إذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات
ضروريات الأجيال القادمة . فهي ترف أولاً يقتصر على
أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانياً تشمل طبقة كبيرة . وأخيراً
ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدن المثقف .

أنظر إلى الطعام : تشهد فيه الانسان البدائي الشبع .
لا يرجو غير الضرورة البيولوجية . وانظر إلى المسكن الذي كان
يبنيه للاحتماء من الوحش أو العدو أو الجو . وإنظر إلى اللباس
الذي كان يتخذه للدفء . أجل لقد كانت الطعام والمسكن
واللباس من الضروريات . ولكن من منافع المتمدين يقنع
من هذه الثلاثة بالضروريات البيولوجية في عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التي لا تزال
في أسفل الدرج من السلم الاجتماعي . وصحيح أن هذه الطبقات
لا تزال تقنع بالضروريات البيولوجية من المسكن واللباس
والطعام . ولكن في كل أمة طبقات أخرى استمتعت بقسط
كبير من المال والثقافة والحضارة . وهي لذلك تتوخى الفن في
كل ما تتناول من عمل . فالمسكن ليس مأوى فقط . إذ هو

متحف أيضاً يتزين بالأثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف
الأنيقة . وسيداتنا وآنساتنا لا يطلبن من اللباس دفئاً قدر
ما يطلبن منه زينة وجمالاً . والمائدة التي تحمل ألوان الطعام
تتفنن في ترتيبها وإيجاد الأطباق الثمينة والآنية الغالية عليها .
وهذا إلى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها
نشاطاً ذهنياً فنياً

فهنا فنون في البناء والأثاث واللباس والمائدة نرتاح إليها
ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التي كان يقنع
بها الانسان البدائي وما زال يضطر إلى أن يقنع بها أو بما يقاربها
الفقير المخبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا إلى مستوى من
الجمال تزداد به لذة واستمتاعاً بل تزداد به فهماً ووجداناً

وبالفن نرفع المشي إلى الرقص . ونرفع النثر إلى الشعر .
ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع أن نعيش الحياة
الفنية فنهذف إلى الفن في الحياة ، والبلاغة في السلوك والتصرف .
ويجب أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لأنه اذا
كان من الحسن أن نتخذ الزي الفني للباسنا فان من الأحسن
أن نتخذ الزي الفني لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الأولى لكل إنسان على هذا الكوكب أنه

سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التي يصفها شكسبير بأنها « قصة يقصها أبله فتحفل بالضوضاء والغضب ثم لا يكون لها مغزى ؟ » أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لأن قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

قد يخطر بذهن القارئ عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البليغة إننا إنما نقصد إلى زخارف وبهاج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعنيان في لباهما حكمة وسداداً . لأن كلمات الحكمة هي أسمى أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هي الحكمة ؟ هي العمل أحياناً بالمعرفة .

وهي أحياناً تجاهل المعرفة .

وهي التمييز في القيم والاوزان .

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه وجداني يتعقل في حين أن الحيوان غريزي يندفع . ونحن نهدف إلى قصد في حياتنا في حين هو يعيش جزافاً . ونحن نقرر مصيرنا بأيدينا في حين هو يدساق خاضعاً للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلى الذي يرتب النتائج على الأسباب ولكنه يطابق المنطق العملي الذي نحيا به في مجتمعنا المتمدن

وحياتنا في عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحياناً تلتغز . وقد كان لآبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها في طريق الحياة

الساذجة التي كانوا يحبونها . ولكن هذه الأعلام لم تعد تكفي
لارشادنا في طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن في حاجة الى
تعاليم جديدة نتعلم بها كيف نعيش الحياة الفنية أى الحياة
الحكيمة وكيف نقضى سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب
ونحن نتمو وننضج الى الأيناع . فلا تكون حياتنا مكابدة بل
إلتذاذاً روحياً ومادياً . ونحن في مجتمعنا إنما نحصل من التعليم ،
في الأغلب ، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب
الحياة الناجحة . لأننا ندسى أن الحياة أعم وأهم من الكسب .
وإننا نكسب كي نعيش ولا نعيش كي نكسب كما هي الحال الآن
وإنما صارت الحال كذلك لأن شبح الفاقة يلوح على
الدوام في مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر
كل شيء آخر . لأننا نعيش في اقتصاديات القلة في حين أن
اقتصاديات الوفرة على الأبواب تلتظرنا بل تناديننا . ولا تحتاج
إلا أن نوميء بأصبع الرضى فيغمرنا الخير الوفير الذي لا نعرف
فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ أى عندما نوميء هذه
الايماة ونرضى بالتعاون بدلا من الميارة في الانتاج ، نستطيع
جميعنا أن نعيش العيشة الفنية ونحي الحياة الحكيمة وأن
نتوخي مارباً فنياً في كل ما تناول من معارف أو معاش
وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة في

ألوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون
من تعاليم أو أنظمة . ولكن أين هذا التفاؤل من حقائق
الدنيا ؟ من الأمراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عييه
ويرى الدنيا ظلاماً ؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لحيه الطرى
ووجهه الحلو فى تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الأعدام
من طبيبه الذى يهبه بمرض لا يعالج ؟

ولكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لان الكوارث نفسها
من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذى لم تكررته كارثة
تصل إلى مخ عظامه ، ذلك الذى لم يحس اللوعة يغص بألمها
ويجمد من هولها ، ذلك الانسان لم يعيش الحياة الفنية ولم
يعرف حكمتها . وأقل ما يقال عنه أنه لم يعيش الحياة الكاملة .
ومع ذلك نحن نبالغ . فان كلاً منا يعرف أن أعظم المصائب
التي كان قد توقعها لم تقع له . وإن بعض هذه المصائب كان
مفيداً قد انتفع به . انظر إلى قول داروين : « لو لم أكن
ممرضاً إلى حد عظيم لما أتممت كل هذا القدر الكبير من
الاعمال » .

وكثيراً ما نعيش سادرين ذاهلين حتى إذا كرثنا الكارثة
تنهنا كأننا قد إستيقظنا من نوم فينبليج لنا نور وتنكشف لنا
حقائق ما كنا لئراها لولا هذه الكارثة . وأيام الممرض فى
السرير كثيراً ما تكون أيام التنبيه والتجديد .

ويحس في حاجة دائمة إلى استعمال ذكائنا كي نميز بين لذة
العاطفة ولذة الوجدان ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية .
وبين الامتياز الذاتي في النفس وبين الامتياز المادي في العقار .
أى بين ما نكونه وما نملكه .

والحياة الفنية هى الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن
والجمال لا يزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح . ولكن من
منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسى . وأشياء أخرى
نعرفها بالاختبارات الذهنية وليست الاولى دون الثانية وأن
تكن فى مرتبة أخرى . وإذا كنا نشد الفن والجمال فى الاثاث
والبناء والرسم فاننا يجب أيضاً ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن نشد
الجمال فى الحياة ، فى الشخصية الرشيدة ، والذهن اللبق ، والجسم
الانيق كما فى الأخلاق السامية والاهداف الروحية والعلاقات
الاجتماعية .

نحن غريزة وعقل

كى نعيش العيشة الفنية ونحي حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف أن كلا منا مركب من غريزة وعقل. الغريزة هى قديمنا الموروث ، هى التقاليد البيولوجية ، هى ذاكرة النوع الجامدة . والعقل هو جديدنا الذى يتعلم وينمو ويميزنا بالفهم عن الحيوان ذلك أن الحيوان يعيش بالغرائز أو أن ٩٩ فى المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاتى على مستوى منخفض ليس له وجدان موضوعى . ولكن الانسان بعقله ووجدانه يستطيع أن يجعل فهمه موضوعياً وأن يصل إلى حقائق الدنيا كما هى فى حقيقةها أو ما يقرب من ذلك . وعلومنا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا إنما هى ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز الحيوان فى ذهول بغرائزه يحمي وكأنه فى حلم . والانسان بالمقارنة به فى قلبه ويقظة بعقله ووجدانه هذا الوجدان الذى نجعله يتصرف وهو يدري أنه يتصرف ولكن الحيوان لا يدري وهذا الوجدان هو الذى يجعلنا على دراية بالموت والفقر والسكريات حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك . ولكن هذا الشقاء إنسانى ، ولا نرتضى النزول عنه كى نعيش بالغرائز ، نعيش فى ذهول كما يفعل الحيوان . وعندما نربى أنفسنا

أو أبناءنا إنما نعلم إلى هذا الوجدان ونستنبط التعقل ومحاولة التعرف إلى الأشياء كما هي في حقيقتها وليس كما تصورناها غرائزنا .

وواضح أنه ليس هناك إنسان يعيش بوجدانه فقط يتعقل كل شيء ويتفهم الدنيا تفهما موضوعياً . لأن كثيراً من تصرفنا يعود إلى الغرائز التي نندفع بها أحياناً اندفاع الحيوان أو نسلط عليها الوجدان بالتعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته . ومهما حقر الإنسان وهان وانحط فإنه يستطيع ، عندما يتأمل عقله ، أن يقول : ما أعظمي ! أي ما أعظم عقلي الذي يتجرد من غرائزي ، ويبحث النجوم والأخلاق والشرف والسياسة ومستقبل البشر وفلسفة الكون وتطور الأحياء .

ومهما عظم الإنسان وسما ونضج فإنه يستطيع ، عندما يتأمل غرائزه ، أن يقول : ما أحقرني ! أي ما أحقر هذه الغرائز التي اندفع بها إلى الطمع والحسد والعدوان والاقتناء والانغماس والنهم والشر !

ولأن الإنسان عرف الخسة التي تنحدر إليه غرائزه وأحس مضض النفس وصداع القلب في المواقف التي اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لأنه عرف هذه المواقف ، عمد في كثير من الأحيان إلى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك . ومن هنا نشأت الرهبنة

في بعض الأديان انكاراً للغريزة الجنسية ولبعض الغرائز الأخرى كالاعتناء والتسلط والحسد والانتقام الخ كأن الغاية أن نعيش بالوجدان والتعقل .

ولكن هذا الانحياز نحو التعقل وانكار الغرائز لا يطيقه إلا الأقلون . بل يجوز لنا أن نشك حتى في هؤلاء « الأقلين » وهل أطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقيت هذه الغرائز كامنة مختبئة في أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثورة على العقل فقط بل أيضاً للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ ويتصرفوا التصرف السيء .

ونحن نعرف من السيكولوجية أن الغريزة وقت التهايبها عندما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلي وتطلب المنفس والمخرج فإذا لم تجدتهما اندست وبقيت بقوتها تبحث عن المخارج الضعيفة حتى إذا وجدتتها انفجرت فلا يكون منها غير الأذى الفادح لشخصيتنا . وأولئك الذين حبسوا الغريزة الجنسية مثلاً لم ينجحوا قط في الغائتها ومحوها . وقصارى ما وصلوا إليه عريضة جنسية مختلفة الألوان والاسماء . أو هم قد خدعوا أنفسهم من حيث لا يدرون فاتجه نشاطهم الجنسي إلى ألوان قائمة من السلوك والتصرف تؤذى المجتمع وتفتت شخصياتهم

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لأننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتنا ، إذ أننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما أى أن نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذى نعيش فيه دون قمع أو جحد .

وفى أغلب الأحوال ينهى معنى التهذيب للغرائز إلى الاعتدال فلا نسرف فى الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نخلو فى الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة « غريزة » من الكلمات الغامضة لأننا نجهل أصلها هل هو طبيعى أم اجتماعى . ولكننا عندما نتأمل نشاطنا الاجتماعى كله ، ذلك النشاط الذى ينظمه العقل وإن كان مرجعه غريزياً ، نجد أنه يعود إلى ما يشبه أن يكون غريزة واحدة هى شهوة الأمن والطمأنينة .

وهذه الشهوة أصيلة فى الطبيعة البشرية وهى التى تدفعنا إلى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس فى الكسب كما أنها هى الأصل فى الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الأشياء مدفوعين بالخوف أى الرغبة فى الطمأنينة ثم ننساق فى عادات هذا النشاط التى تتمسكنا فلا نعرف أين نقف . كذلك البهيمة التى نشدها إلى الساقية فتدور وتجرها مكرهة حتى إذا جئناكى نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت فى دورتها بقوة الاندفاع الأول

فهنالك مثلاً من يلساق لغريزة الخوف ويطلب الطمأنينة
يجمع المال . وهذا حسن إذا عرف أين يقف ومتى يقنع بمقدار
من المال يحقق هذه الطمأنينة . ولكن بعيد جداً أن يعرف هذا
لأنه حتى بعد أن يحقق هذه الطمأنينة ويجمع من المال ما يكفيه
هو وعائلته يلساق في عادة الجمع . فلا يكون المال خادماً بل سيده
الذي يستبد به ويحمله على الجهد أكثر من عماله الذين يخدمونه
حتى ليصل إلى مكتبه أو متجره قبل دخولهم ويخرج بعد خروجهم
هذا هو شأن كثير من الناس الذين يشقون لأنهم يلساقون
مندفعين بغرائزهم دون أن يسلطوا عقولهم عليها فيعتدلون
وينظمون نشاطهم كي يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شأن
الغرائز أنها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاء النوع .
وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل أن تجهزنا بالعقل وذلك كي تكفل
لنا البقاء والتغلب في ميدان التنافس بين أنواع الحيوان وأفراده
للبقاء . اعتبر مثلاً غريزة التناسل . فان رجلاً واحداً ، واحداً
فقط ، يحمل في جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفي لتلقيح أنثى
النوع البشري كله . ونجد مثل هذا الاسراف في سائر الغرائز .
فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبة في التسلط بامتلاك هذا
السكراب إذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك
ونابليون وهتلر . وحين نشرع في الاقتناء نتوهم أننا يجب أن نجمع
ما يكفيننا ألف سنة .

وقيمة العقل أنه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال
ولكن بلا زهد أو نسك . أى بلا انكار للغرائز . وقد يكون
لقليل من الزهد قيمة فى التذاذ العيش أى فى التأنيق فى الاختيار
بالامتناع عن قبول كل مايرد . كالعطش يجعل الشراب أسوغ :
ولكن الاستمرار عليه جنون قاتل .

وتقتضينا الحياة الفنية أن نعيش بالعقل والغريزة معاً فى
مصالحة ووافق بين الاثنين . ولكن فى تميز نحو العقل لأن العقل
إنسانى والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الإنسان الإنسانى
والإنسان الحيوانى هو أن الاول يعتمد فى الأكثر على وجدانه
وعقله فى حين يعتمد الثانى فى الأكثر على غرائزه .



كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات موطرية أو انفجارية . وهى فى حال الأولى تكسبنا الطاقة التى ننبعث بها إلى اللشاط الذهنى أو الجسمى . ولولا هذه القوه الموطرية لما تحركنا إلى الطموح أو الدراسة أو الكسب . وهى لذلك جهاز نافع أيام الصحة . ولكنها تستحيل إلى قوة انفجارية معرودة أيام المرض نتطوح بها إلى الجنون أو الشذوذ أو الاجرام .

والعواطف فى مجموعها اجتماعية أى أننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح أن هناك عواطف نرثها وراثه طبيعية كالعاطفة الجنسية أو عافه الجوع إلى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفة « الطبيعية » تتخذ لونا اجتماعيا .

والمجتمع الذى نعيش فيه ، بما له من طرق فى كسب العيش وأساليب الانتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل شخص منا . فاذا كنا نعيش فى نظام اقتصادى يقوم على المباراة فان صفات الانانية والغيرة والرغبة فى التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا إلى العمل والكسب ، وأحيانا تستحيل هذه الصفات إلى عواطف سيئة . كالحسد والتسلط والخوف . وتحدث لنا عواطف أخرى إذا كنا نعيش فى مجتمع تعاونى

ليس فيه سيد ومسود وغنى وفقير وكانز ومحروم كما هي الحال في المجتمعات الاشتراكية .

ولأننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة ، فإن جميع الرذائل التي تستتبعها المباراة تتخذ شكلا عاطفيا في نفوسنا . ولذلك نشقى كثيرا بالأنانية والحسد والرغبة في التفوق والاقتران والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادي محدود الفرص . فقد يجد غيرى فرصة لا أجدها أنا فأبتئس لتخلفي وأغار من تقدمه وأحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذيني أو هي تبغثنى على الإفراط في الجهد حتى أموت قبل الأوان بزيادة الضغط للشرابين أو بعجز القلب أو بالاختلال في التمثيل السكرى أو قد أبقى مريضا بهذه الأمراض وغيرها وأشقى بها . وهذا إلى هموم لا تنقطع تغشى نفسى بالغم والكآبة وقد تحملنى على الانتحار .

ولذلك نحتاج ، كي نعيش الحياة الفنية في هنام ، أن نسوس عواطفنا حتى تبقى موطرية تدفعنا إلى السير متشدين ولا تكون انفجارية تشور بنا وتبددنا . وأول ذلك أن نعرف بوجدان يقظ وتعقل متزن أننا نعيش في مجتمع قائم على المباراة . وأنه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب أن نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذى نستضيء به ، فلا تتطوح في مطامع لا نقوى

على تحقيقها فنكون لها عبيداً نجري ونهرول طوال حياتنا كأننا مستخرون في جمع المال واقتناء العقار .

وليس هناك مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى نثبت للقارىء أنها كلها تعود إلى مجتمعنا . فإن غير المرأة من حماتها ؛ أو العكس . وكذلك من كدة الرئيس لمرؤسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الأولاد من الأخطار ، كل هذه العواطف تعود إلى نظام نفسى ينهض على أساس المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه .

وقصارى ما نستطيع أن نبسطه فى هذا الفصل هو نصائح موجزة نبغى بها علاج المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه . أى علاج الفرد مما تجلبه عليه العواطف التى غرسها فيه المجتمع . أما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة إلى التعاون ومن الاقتناء الفردى إلى الاقتناء العام .

١ — من شأن العواطف أنها لا تؤذينا إذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة . أى وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فنحن نتحمل الإفلاس التام ، أو موت الابن أو الأم أو كارثة الغرق أو الحريق أو الطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة التى تناكدنا كل صباح على الطعام أو القهوة . ولا نتحمل

الزوجة معا كسة حماتها . ولا يتحمل الطالب توبيخ أبويه كل يوم لفشله في الامتحان . أى إذا تكررت المناكدة أو المعا كسة كل يوم ، ولو كانت لأسباب نافهة ، أدت بها إلى الانهيار العصبي الخطير . لأن العبرة بالتكرار .

٢ — لهذا السبب يجب ألا تعيش الزوجة مع حماتها أبدا . وإذا كانت هناك ظروف تضطرهما إلى الاشتراك في العيش فليكن هذا على وجدان منهما . أى يجب على كل منهما أن تعرف أنها في حالة شاذة وأن تحتاط من الوقوع في المناكدة أو المعا كسة .

٣ — يجب على الأب ، إذا فشل ابنه أو بنته في الامتحان ، ألا يعتمد إلى تقريعه كل يوم . لأن هذا التقريع قد يؤدي إلى انهيار عصبي خطير . وخاصة إذا كان بين ١٧ ، ٢٥ .

٥ — الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها .

٦ — إذا ثقلت العاطفة فإن النشاط الجسمي يخفف من ثقلها . حتى المشى والجري يخففان من ثقلها .

٧ — من الواجب أن نذبه الرؤساء في المصانع والمكاتب إلى أن يكفوا عن معا كسة مرءوسيههم حتى لا يكون أحدهم

كالحماء التي تبعث بزوجة أبيها إلى المارستان لأنها لا تفتأ توبخها وتبخسها .

٨ — يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفال الأربعين للمتوفى أو التجمع في الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظاهر تحي الحزن القديم عند الغير .
وهذا أحسن ما نستطيع أن نقول في مجتمع المباراة الذي نعيش فيه . وهو مجتمع سيء في أساسه .

التربية

لا تقل طفولتنا البيولوجية عن ١٧ سنة . ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة . ومعنى هذا أن مدة التربية عندنا طويلة . وذلك أننا لا نولد بأجهزة من الغرائز التامة التي نعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التي تسبح عندما تخرج من بيضها ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيور التي تحتاج إلى شيء من التعليم كي تطير وتجرؤ على اقترحام الجو .

ذلك أننا نحن البشر قد استغنيينا عن الكثير من غرائزنا أو قد وضعناها في الصفوف الخلفية من كيائنا النفسي وأقننا العقل وصياً عليها يديرها ويوجهها . حتى أننا لا نأكل ولا نتناسل في استسلام كامل للغرائز إذ أننا نسلط العقل هنا أيضاً ونجعل له التصرف الأعلى . وصحيح أننا لا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز ولكننا نستطيع التصرف بها وتوجيهها .

وتسلط العقل يجعل التربية ضرورية لكل فرد منا . وخاصة إذا كنا نعيش في مجتمع راق أي أرقى وأكثر تركباً من المجتمع الزراعي أو البدوي . وتوجه التربية في عصرنا إلى إيجاد عادات ومهارات نكسب بها العيش . وليس من شك في قيمة التربية وخاصة في مجتمع لا يزال يعيش على اقتصاديات القلة وليس

على اقتصاديات الوفرة التي يلتهم فجرها الآن في الأمم المتقدمة في الانتاج الآلى ، . ولما كان التربية يجب أن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب .

وكذلك يجب ألا ترمى التربية إلى تعليمنا المعارف والثقافة فحسب وإنما يجب أن توجهنا الوجهة التي نتعلم بها وحدنا . وكى نوضح قصدنا نطلب إلى القارىء أن يقارن بين أرسطوطاليس وبين تلميذ في السنة الثالثة أو الرابعة من مدارسنا الثانوية . فليس من شك أن التلميذ يفضل هذا الفيلسوف في كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن أرسطوطاليس يمتاز بأتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا إلى خمسين أو ستين سنة حتى يصل إليه . بل قد لا يصل إليه لأنه لا يجد من يرشده .

ليست التربية السديدة أن أعرف وإنما هي أن أعرف كيف أعرف أى كيف أعلم نفسى وأزيد معارفى وأكون طالبا مدى حياتى . وليست التربية أنى أعرف كيف أكسب العيش بل هي أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا السكوكب فى نمو لشخصيتى وترقية لذهنى . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفى للكسب ، إذ يجب أن تهدف إلى النجاح فى الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة .

والنجاح فيها يقتضى النجاح فى الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفنى والذهنى الخ . .

يجب أن تهدف التربية إلى أن تحمل كلاً منا على الاهتمام بالآثار الأنيق والرسم الفنى كما نهتم للكسب فى مجتمع اقتنائى يعيش أفرادُه بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا إلى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه إلى تقدير ألوان الجمال فى الطبيعة : القمر فى الريف والشمس فى البروغ والبحر والقفور والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها .

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شيء إلى درس الفنون وإلى ترقية الإحساس الفنى بحيث نسلك ونتصرف ولنا فى كل ذلك مأرب فنى . حتى إذا سرنا فى حديقة استمتعنا بالزهور وهى على شجرتها فى أشرافها وإيناءها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها .

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاي

ويجب أن نزداد رغبة فى امتلاك هذا الكوكب نفسياً وذهنياً وفنياً كلما ازداد هو تقاصاً بالمخترعات الجديدة حتى

تتسع آفاقنا ، حساً وذهناً ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل تشمل شئون العالم كله والبشر جميعهم .

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن أى تزيد الوجدان - حتى نعيش في يقظة ونطاب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون . ولا نعيش ذاهلين ذهول الخيران الذى تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو يعود فى الاغلب إلى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبدل ذهنه ، وبين شيخ لا يزال له حدة وفتوة ويقظة وذكاء ، يعود إلى أن الأول لم يتعود القراءة ، وأن الثانى قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مألوفة فى الذاكرة سهلة الاستحضار . ولما كانت المعانى مجسمة فى كلمات فان من البعيد جداً أن نجد رجلاً يهرم ويتبدل ذهنه مادامت الكلمات حاضرة معدة لتليبه

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة لأن الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة وتبقى هذه المراتة إلى الشيخوخة .

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية . أى يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية . وقد أحدثت لنا القنبلة الذرية وجدانا بهذا الاحساس . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا بؤرة أى

نقطة للتعمق والتخصص في المعارف . ولكن يجب أن نتشجع من هذه البؤرة العميقة إلى التوسع في الافاق الذهنية الوحبة . كما يجب أن يكون كل منا سقراطياً أى يعرف أنه لا يعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات ويبقى على هذا حتى يموت » وعلى صدره كتاب « كما قيل عن الجاحظ

وفي المستقبل القريب ، بل القريب جداً ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة إلى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام قراغنا الذي سيزيد عاماً بعد آخر ، وكثير منا حتى في عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف ينتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنا إلى النعمة التي نفتأ نعزف بها وهي أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة وكيف يتعمقون في حياتهم ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيوا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاستطلاعي اليقظ الذي يشتهى المعارف ويعرف أيضاً أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : أجل ، هو الحياة في تعمق وتأنق . وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق

وأخيرا نقول إن التربية الحقيقية هي التربية الذاتية . فلا
يبأس أحد لأنه لم يمتاز بتعليم جامعي أو لأن ظروف حياته
الماضية لم تهيه له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع ان يشرع
في أى وقت وان يضع البرنامج الدراسى الذى تحتاج إليه تربيته
وهو اقدر انسان على وضع هذا البرنامج إذ هو الوحيد الذى
يعرف حاجاته وكفاءاته

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

نحن نعيش في المجتمع المتمدن بدستور أخلاقي نأخذه كله أو ٩٩ في المئة من العائلة التي نشأنا فيها والشارع الذي مارسنا فيه اختبارات الطفولة ومن زملاء المدرسة والحرفة ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم. ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التي يعينها لنا.

وكثيراً ما نأخذ بقيم وأوزان فاسدة لأن المجتمع الذي نعيش فيه فاسد. وكثيراً ما يخفي علينا هذا الفساد فتندفع في التيار لا نقف ولا نردد. ولكن أحياناً نقف ونتردد. وعندئذ يكون التقلقل والبحث والتجديد. ثم تكون قيم وأوزان جديدة والقيم والأوزان إما أن تكون اجتماعية وإما أن تكون بشرية. وإذا كان المجتمع راقياً كانت كل أو معظم أوزانه بشرية. ومثال الأوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل وصيانة الصحة ومكافحة المرض. وتنوير الذهن. بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذ ولا ثراء مبطر. ومثال الأوزان والقيم الاجتماعية النزين واقتناء القصور والضياع والتفاخر بالولائم وابهة العرس أو المأتم ونحو ذلك.

وكى نزيد الايضاح نفرض أن هديقاً عائلاً مات وترك زوجته وجملة أولاد . فالرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المأتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزى أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قد أنجز جميع واجباته . وربما قد يبالغ فى هذه الواجبات فينعيه فى الجرائد . ولكن الرجل الذى تغلب عليه الأوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الأرملة وأولادها فاذا وجد أنهم فى حاجة إلى المال تبرع من جيبه وجمع من غيره ما يقسمها . ثم هو يرعى الأولاد بالنصيحة ويهئ لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التى فقدتها بموت العائل . ومن هنا نعرف أن الضمير الحسنى هو الضمير البشرى وليس هو الضمير الاجتماعى .

ومن هذا المثال الذى ذكرناه نستطيع أن نتوسع فنقول : إن للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن المال ، بعد أن يتجاوز حداً ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذى ينشد فى الفتاه جمالها إنما ينشد قيمة بشرية ولكنه عند ما ينشد ثراها إنما ينشد قيمة اجتماعية . ومن هنا أيضاً نقول أن الزواج قيمة بشرية ولكن أهبة العرس وجهاز العروس وبحوز ذلك تعد من القيم الاجتماعية .

وكثيراً ما تستهلك القيم والأوزان الاجتماعية مجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع في جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخسائر أو السنين لأن المجهود في هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفي الوقت نفسه حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية . وكثير من الناس يغمرهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك تجد أن كل اهتمامهم ينحصر في شراء اتومبيل من الطراز الجديد أو يغمرهم الهم والنكد لأنهم فقدوا صفة تجارية . مع أن زيادة ألف جنيه أو نقصها في حساب البنك لن يضيرهم

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية في التفوق في حرفته . ثم يفشل في عائلته أو مجتمعه ولا يدري أن النجاح يجب أن يكون كلياً يشمل العائلة والمجتمع والحرفة والفراغ . وكثير من الأمراض النفسية الفاشية في أيامنا تعزى إلى الابدفاع في هذه القيم الاجتماعية دون التفكير في القيم البشرية . وذلك « الرجل الأجوف » الذي تحدث عنه الشاعر اليوت إنما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه فنسى كلمة الامبراطور ماركوس أوريليوس حين قال أن أعظم

ما يشترق إليه ويتمناه في هذه الدنيا كسرة من الخبز مع قطعة من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة .

والحك الذي يفصل بين القيمتين والوزنين أن نسأل عند ما نسأل عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم ، مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

و حين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ما عنده ؟
فنجيب بأن عنده منزلا به أثاث فاخر أو عنده ضيعة ،
وأنومبيل وعشرة آلاف جنيه في البنك ولقب بك الخ .
والحياة الفنية تقتضينا التمييز بين القيم وأن نجعل للقيمة
البشرية المكانة الأولى في جميع اعتباراتنا سواء في أنفسنا أم
في غيرنا . والرجل الطيب هو في النهاية الرجل البشرى وليس
الرجل الاجتماعى أى الرجل الذى يتعمق ويصل إلى الجذور
وعند ما نتأمل الأنبياء بل كذلك الفلاسفة والادباء ، نجد
أن كل اهتمامهم كان منصرفا إلى تغيير المجتمع بوضع القيم
البشرية مكان القيم الاجتماعية

الاستغناء أم الاقتناء

نحن نعيش في مجتمع « اقتنائي » ، نشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لي وهذا لك . وعلى أن أحدا يسر بأن يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فزداد رغبة في الاقتناء واندفاعا نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن في تعب ، لأننا لم نقن كما أقتنى فلان الذي كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا في مباراة نرقبهم حين تخرج إحدى بناتهم في ثوب زاه ، أو حين نقرأ في الصحف عن الترقيات والعلاوات ، فنمتلي حسداً لأن هذا الشخص الذي كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الأقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا .

ونحن نشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا في حاجة إلى زيادة ولكن لأن المجتمع « الاقتنائي » الذي نعيش فيه قد غرس فينا هذه العواطف . فاكسبنا هموما شخصية تنزع بنا إلى الجهد وتحمل المتاعب كي نتفوق في الجمع ونستمر في الزيادة . ونبقى على ذلك طوال حياتنا ، حتى أننا نرى ناسا قد تقدمت بهم السن وأثقلتهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم في هموم دائمة وحسابات لا تنقطع ، حتى

ليتسامل الانسان وهم في هذه الحال : هل هم يملكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هي التي تملكهم ؟
وأعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء ، ان هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كي يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التي لا تترك له فراغا .

وقد أصبحت اعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى أننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب في تغيير الجو من الحر إلى البرودة ، بل لأننا نحب أن نفر من هذه الاعباء . فالتغيير هنا سيكون وحي وليس مناخيا . وعندما نتأمل المصطافين في رأس البر أو الاسكندرية ، نجد انهم ينطلقون من القيود ويحاولون ان يتصلوا بالطبيعة في بساطة من التكاليف والأعباء تشهد على انهم كانوا متعبين بما كانوا يقتنون من ملابس غالية مرفقة في المدن

والحق أننا عند ما نتأمل معيشتنا في وسط متمدن ، وما يجعله علينا هذا الوسط من تكاليف وما يطالبنا به من مطاعم نجد أننا جميعا في حال سيئة من القلق النفسي ، مسوقين بأوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين . وهذه الأوهام هي في نهائيتها مصطلحات ليست لها قيمة بشرية ، وهي لا تزيدنا إلا أعباء وهموما

إذ نستطيع أن نستغنى عنها . فقد استغنى شبابنا مدة الحرب الأخير مثلاً عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة عند ما تخلصوا من هذا التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات أيضاً ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن إلا بالراحة والزيادة في الصحة بهذا الاستغناء . أجل . . إزداد الجميع صحة لأن الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد في تعرض الأعضاء لأشعة الشمس ولاثرها الصحي في تنبيه الجسم .

وأعود فأقول أن معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ، بل أحياناً مجهودات مضمية مميتة ، في الاندفاع نحو الاقتناء إنما هو مصطلحات اجتماعية لا أكثر ، أي ليس لها في نفوسنا حاجة طبيعية . فحاجتنا الطبيعية قليلة جداً . وقد قنع غاندى مثلاً بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أو أربعة في العام كله . فهو يكتفى من اللباس بقطعة من القماش غير مخيطة يتلفع بها ، بينما يحتاج أصغرنا إلى عشر قطع كي تغطي بها جسمه كأما ضمادات مجروح ، أو كأسها خرق ملوبة لمهرج على مسرح !

وإذا كنا نحن نستبعد أو نستغرب معيشة غاندى ، فليس ذلك لأن غاندى مخطيء ، بل لأننا نعيش في أسر مصطلحات اجتماعية قد تغلغلت في نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف والرجل الحكيم هو الذى يعرف كيف يستغنى دون أن

تتقص حاجاته الضرورية . ومن هنا قيمة الدعوة إلى الحياة البسيطة ، أى إلى بساطة العيش . وهذه الدعوة هى نداء قديم يتردد صدهاء عبر التاريخ منذ آلاف السنين . وكلنا نذكر « ديو جيليس » الاغريقى الذى لقبه الاسكندر المقدونى وسأله عما يستطيع أن يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل ما يطلبه إنما هو أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه . ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديو جيليس كان على حق ، وكان سعيداً بهرميله الذى كان ينام فيه ، فى حين كان الاسكندر شقياً بما جلب عن نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعمد الاسكندر إلى الانتحار وهو فى الثلاثين ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء إلى الفتح والحرب . وكان ديو جيليس يندفع بروح الاستغناء إلى العيش فى برميل . وكلاهما مسرف . . ولكن اسراف ديو جيليس أقرب إلى الحكمة من اسراف الاسكندر .

وغاندى فى عصرنا يجرى على مذهب الفيلسوف الاغريقى ويحمد مذهب الفاتح المقدونى ، وهو حكيم فى هذا السلوك . وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بعيب التكاليف

المرهقة التي تفرضها علينا الحضارة . رغم أن حضارة العصر الذي كان يعيش فيه ، هي البساطة والسذاجة بالمقارنة إلى ما نعيش نحن فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة . واكن مدينته ، حوالى سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة إلى المدن التي نعيش فيها الآن . فلم يكن في مدينته ترام أو سيارة أو راديو ، ولم تكن مضار المباراة وما تجلب من حسد وهزيمة وقلق جزءا من مائة مما يكابد أبناء المدن في هذه الأيام ، وقد ترك بعده ، ثور ، الأمريكى المدينة الأمريكية وعاش في الغابة وترك ادوارد كارنتر المدينة الانجليزية وعاش في الريف . وفعل كذلك تولستوى وغاندى

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة نجد أن الحكمة في جانبهم والجنون في جانبنا

فقد عاشوا بالاستغناء ، في حين نعيش بالاقتناء . وأمتازوا بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من الواجبات والاثقال التي ننوء بها ونزعم أننا بفضلها سعداء مع أن الحقيقة أننا مسخرون فى الجمع والاقتناء ، ثم فى زيادة الجمع والاقتناء . وسنظل على هذا المنوال حتى نموت بالنقطة أو السكتة

مجهودين مرهقين

وأسوأ ما فى هذه الحياة التى نعيشها ونحن نعدو وراء المطامع وكأننا نجرى فى سباق ، أننا لا نعرف ماذا نقتنى ولما نقتنى . ثم هذا العدو فى هذا السباق لا يتيح لنا فرصة الوقوف كي نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين فلا يلتفت لنا ذكاء ولا يتردد فى رؤسنا خاطر ولا نتسائل : لماذا كل هذا ؟



نعيش لنحسب أم نعيش لنحيى

غاية الحياة هي الحياة . وليست غايتها أن نكون أثرياء
أو أصحاباء أو علماء أو سعداء . لأننا إذا كنا نطلب الثراء أو الصحة
أو العلم أو السعادة فانما لأن كل واحد من هذه الأشياء يؤدي
في النهاية إلى الحياة المثلى التى نتمناها .

فيجب لهذا السبب إلا نخطئ الهدف . وهو أن نحى لأجل
الحياة . وإذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فاننا لن
نحرف . إذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم أنحرافاتنا .

وأعظم ما تقع فيه من انحراف بل أعوجاج هو ان المجتمع
يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على ان نلبي ان هدف الحياة
هو الحياة . حتى اننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، اى كلنا ،
ننتهى إلى عادات فكرية ونفسية لو انها امتحنت في نزاهة وذكاء
لكانت أقرب إلى الجنون والشدوذ منها إلى التعقل السوى .

واسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هي
ان نحيل الحياة إلى حساب . ذلك ان احدنا يلبي انه يجب
ان يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعا ومعرفة وحكمة .
يلبي كل هذا ثم يرصد وقته وجهده في الحساب . وما هي

زيادة دخله هذا العام على دخله في العام السابق؟ وماذا يستطيع أن يشتري بما أذخر مما يزيد هذا الدخل؟ الخ
وأحياناً تستحيل هذه العادة إلى جنون . فلا يشتغل الرأس إلا بها ولا يتحرك النشاط إلا لأجلها . حتى أننا لنرى لصاحبها إذ نجد أنه مأسور قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام أو الشراب أو التنزه أو الاجتماع بالأصدقاء . وقد يسأل احدنا عند ما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى كثيراً ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر في الشراب أو النساء : أيهما أفضل ؟

وليس هذا السؤال لأن الاستهتار حسن . ولكن لأن قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان في الاقتناء أسوأ من أي استهتار . لأن أقل ما يقال في المقارنة هنا أن المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف في الاستمتاع إلى حد الضرر . ولكن هذا الخاص لا يستمتع بتاتا إلا كما يستمتع النيوروزي أي المريض النفسي بعادة تملكته واستبدت به وهي بعيدة عن العقل بل متمردة عليه .

ونحن في عصرنا الحاضر نحتاج إلى كاتب مثل د. هـ. لورنس كي يبين لنا أن واجبنا الأول في الدنيا هو أن نعيش . فقد ألف هذا الكاتب قصته « عاشق الليدي شاترلي » واسرف في دعوته

إلى الاستماع الجنسي باعتبار أنه أهم من الاعتبارات الاجتماعية التي تنكر علينا ملذاتنا وتشغلنا بألوان أخرى من النشاط الذي ننحرف به ونزيع عن هدف الحياة وهو أن نحى ونستمتع . وليس شك أنه اسرف بل أنه وقع فيما أراد أن يحذرنا منه . إذ هو جعل الاستهتار الجنسي هدفاً ، وكأنه اعتقد أن اللذة الجنسية هي كل ما في الحياة . وهذا خطأ فاضح .

وصحيح أن الاستهتار الجنسي ، في القيم والأوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر في الحساب لاقتناء المال وزيادته . ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم إن اللذة الجنسية جزء من الحياة وليست الحياة جزءاً من اللذة الجنسية . فإذا نحن تحرينا الحياة المثلى فأننا بلا شك لاهمل الملذات الجنسية ولكننا أيضاً نضع هذه الملذات في مكانها فلا تتجاوزها وتطغى على حياتنا كلها . إذ إن هناك ملذات أخرى تحتاج إليها الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء والحكمة .

واسراف لورنس في الاكبار من شأن اللذة الجنسية إنما هو مبالغه يرمى بها إلى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة في اندفاع الناس إلى جمع المال وقضاء العمر في الحساب . حتى أننا لنجد رجلاً في الستين أو في السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجمها والاهتمام بدخله والتفكير في شراء عقار جديد أو نحو

ذلك . مع أن كل ما بقي له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين .
هو أخرج فيهما إلى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل
أن يغادر هذه الدنيا .

ووظاة المجتمع علينا هي التي تسوقنا إلى أن نستبدل الحساب
بالحياة . وإلى أن نسخر أنفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع
بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ في نفوسنا بحيث نعيش
في هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جراداً ننشط نشاطاً غريزياً ،
لا نعرف غايته .

والرجل الذي ارتفع إلى أن يجعل من حياته فناً يجب من
وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم
المجتمع وأوزانه قد غمرتني وسخرتني حتى صرت آلة جمع وطرح
للحساب أى لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهي أن
نعيش كالأطفال أى أن ننزل على القيم البشرية الساذجة نحب
الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل .